انتقام الملهب

بقلم : عبد الواحد باشى اعيان العباسى

[.. فكانت حياته البيتيه جحيماً مخنقاً يتأوه من دخوله البيت ويزفر عند خروجه كمن ينطلق من سجن أليم ..]

اندفع من باب الملهى الى الطريق المظلمة ، مرتعش البدن مضطرب الفكر لا يعي موقع قدميه الثقيلتين على بلاط الشارع ، فكانتا في صدى الليل الهادىء يسمع لهما رنيناً مزعجاً فيه اضطراب ورعشه ، وكان الظلام الحالك قد تطاول فغطى وجه السماء واندس فى زوايا الارض .

وامست تلك الفوانيس المتدالية على جانبي الشارع ، باهتة خافتة لا تضيء لمن كان فى غيضه وحمقه ، مسلوب الفكر محموم النظر .

وكانت شفتاه النديتان في لونهما الوردى الباهت ، ترددان [فى غير وعي] لحناً موسيقياً عذب التوقيع فياض العاطفة تمازجه رعشة البدن والصوت الشجي ، اما هذا اللحن قد الهمه في ساعات الحب الهنيئة واخرجه من أعماق الايام التي اترع فيها كؤوس الغرام وثمالة الوصال ، وصب فيه جميع آماله وحبه وشجونه ، ليبعثه قطعة خالدة تكون حقاً [الغرام الملتهب] كما اسماه .

فكان هذا اللحن — فيما سبق — اذا ما ردده انار في حياته مصابيح الشوق ولذة الحب وسعادة الحياة ، اما — اليوم — فاصبح يثير فيه الشجن والألم واليأس ويزيد في اضطراب نفسه وافكاره بعد ان تنكرت له تلك المعشوقة الفاتنة — راقصة الملهى الذي خرج منه قبل قليل ...

ما كان صاحبنا [الفنان] يدرى اين يولي وجهه ! ولا مكاناً يأوى اليه فى تلك الليلة المعتمة ، فقد كانت افكاره القلقة كالمعتوه الذي ركب خشبة تتدافعها الامواج ، تارة يشرق له الأمل بالنجاة فيبتسم ، واخرى يطفى عليه اليأس فيرتفع بالعويل والبكاء .

غير ان هذا الفنان اليائس كانت ترمض فى صفحات ذهنه ذكريات الماضى الجميلة ، ثم تنهزم بظلام الحاضر وغيرة الحب ، فيضطرب في سيره كالسكران فى وحل الشتاء ، وكان هذا اليأس الجارف يوحي اليه بفكرة الانتحار والخلاص من الآلام والعذاب .

غير انه بشر يتعلق باهداب الأمل وخيوط الرجاء ، شأن غيره من العاشقين الذين يحسبون ، تقطيب المحبوب اغراء ، وقسوته دلال وفتنة ، وتمنعه عفة وفضيلة ، فاصبح قلبه يوهم عقله بأن ثمة وشيلة لعودة الهناء والنعيم .

اخذ يسرع الخطى نحو الخلاء الفسيح خارج تلك المدينة الآثمة ليستروح نسمات الليل العبقة ، ويطفىء لهيب بدنه المحموم وروحه الثائرة ، وشاقه أن يستعرض « فيلم » حياته وحبه وآلامه ، وكان يحرص ان تمر على ذهنه تلك الصور واضحة متسلسلة ، فان راقته منها صورة استعادها ثانية من جديد ...

ظهرت له صورة حياته الغضة يوم تخرج من مدرسة الفنون الجميلة وقد عبدت له الاحلام ، سبيل الشهرة والمال والمركز الرفيع ، وصورت له الاماني ، المستقبل طريقا فرشت بالزهور تنتظر مروره ، وطافت به الآمال ، إنه سيغدو بجماله وفنه قبلة الحسان اللواتي سيتهافتن على موسيقاه تهافت الفراش على النور ... استعاد هذه الصور مراراً في مخيلته ، وكان مبتسماً لها ابتسامة الوليد للحلم الخاطف .

ثم مرت الصورة الجانية الثانية ، حين اجبره والده ان يتزوج ابنة عمه بعد ان اطمأن الى مورده المالي الذي يدره عليه اشتغاله في الملهى — مديراً للاوركسترا — ولقد ضاق

آنذاك ذرعاً — ولا زال بهذا الزواج المباغت المفروض وهو لم يبلغ القمة في فنه ولا طعم لذة الحرية التي يتمتع بها الشباب ...

فكانت حياته — البيتية — جحيماً مخنقاً ، يتأوه في دخوله البيت ويزفر عند خروجه كمن ينطلق من سجن اليم .

واخذ ضميره الذي انطلق هذه الليلة من محبسه يكيل له التأنيب والتجريح واخذ يخزه شيئاً فشيئا فصور له ما كان يعامل به زوجته من القسوة والعنف والتضييق والحرمان ، وهي وفية ثابته لا تثور بوجهه ولا ينصرف حبها عنه واحتملت كل ذلك الضيق والارهاق بصبر عجيب .

آلمه هذا التجريح من ضميره المؤنب فرفع رأسه يستنشق الهواء عميقاً ويهزه بعنف ليضرف هذا الكابوس الثقيل والحساب العسير ، واسرع بخاطره الى صورة محببة لديه هي يوم تعرف بالراقصة الحسناء ، والتي استهوت قلوب روّاد الملهى وفتنتهم بجسمها الناعم الدافيء ، وهي ترقص عارية على المسرح فتتلوى كما تتلوى أشعة القمر على صفحة الماء المترجرج .

أخذ صاحبنا الفنان يستعرض كل كلمة وخلجة وحركة في اجتماعيها الأول ثم ازدحمت في رأسه صور اللقاء والعناق والقبل والأيام التي قضاها بين ذراعي هذه الحسناء الفاتنة في خدرها الجميل ، فالتهبت دماؤه بحمى الحب ، وارتجفت اوصاله بذكرى الوصال والنعيم ، وتبخرت في رأسه ذرات العقل والاتزان ولم يبق الا ضباب عاطفة هائجة ثائرة تسوقه للرجوع ، فعاد في طريقه مسرعاً تدفعه اللهفة ويسوقه الشوق الى دار الراقصة عله ينعم بساعات هنيئة خاطفة وهي كل ما يتمناه في الحياة .

ولم يستطع عقله ان يذكره بحقيقة جفائها وقصتها حين طردته قبل يوم من بيتها كما يطرد الخادم المكروه ، وما استطاع ان يتذكر انها استثقلت ظله وبرمت به حين خلت محفظته من النقود واصبح لا يستطيع ان يتحفها بالمال والهدايا النفيسة الغالية ، وما قدر ان يفهم انها كانت تسلبه ماله وفنه ايضاً ، فانه بعد ان ابتكر لها ذلك اللحن الرائع [الغرام الملتهب] وارتقت فنه إلى درجات الشهرة والنبوغ والتقدير ازدرت بمن كان الاساس في مجدها وعلوها واصبح في نظرها انساناً بارداً خاملاً لا فن فيه ولا حياة ... كلا ... لم يستطع ان يتذكر كل ذلك وانما انساق — الى دارها — بعاطفة مشبوبة وخيال باسم .

فلما ولج باب الدار ارتقى سلمه بخفة وسرعة كما كان يفعل من قبل ... احست به الراقصة فاخفت عشيقها الجديد في غرفة ثانية ثم استقبلت هذا الميتم الثقيل بكثير من التجهم والبرود ، كان متعوداً ان يراها تتعلق به تعانقه وتمنحه القبلات الحارة العذبة واللطف الجميل ، فانكر تغيرها بعض الافكار ولكن الشوق فتح له بصيصاً من الأمل ، فاذا بها تبدأ في صوت غضوب ولهجة جافة تطرده وتزدريه فحاول ان يسترضيها حين وقع على قدميها يستنجد فيها الرأفة والحنان والحب ولكنها لم تسمع لغير صوت المادة والجشع بعدان فرغ هذا الميتم من ماله وفنه ، وازدادت له انكاراً وطردا ثم امعنت في إيلامها له بالقول المقذع والسب المهين ...

عند ذاك تنفست فيه الرجولة ، وثارت بقايا محطمة من عزة النفس وكبرياء الوجدان ، ومرت في خاطره كلمح البصر صور الايام الغابرة منذ تعرف بها وتعلق بحبها ، ولكنه لم يخطر له غير شيء واحد هو مساوئها ونقائصها ، فاخذ يسرد لها في صوت منفعل غضوب كيف بذر ماله وهجر زوجته وضحى بفنه وانكر عبقريته في سبيلها ولاجلها هي وحدها دون جميع الناس ولكن تلك الغضبة الحانقة لم تزدها إلا امعاناً في تحقيره وايذائه فثارت في قلبه براكين من الحقد والكراهية لو صبت على حجر لاذابته فكأن ذلك الحب الطاغي قد نسخ الى حقد دفين ، فهجم عليها كالمجنون وانشب اصابعه القوية في عنقها الجميل المرمري ، ولم يتركها الا جثة هامدة لا حراك فيها ولا حياة ،

لم يعد يرى ما امامه ولم يع ما يقول وانما سار بحكم العادة الى الباب وهو يترنم بذلك اللحن الشجي يردده بين شفتيه المضطربتين !

البصرة — عبد الواحد باش اعيان العباسي